رد مالك بن نبي على شبهات المستشرقين حول القرآن الكريم

د. يوسف حسين*

في كتابه المتميّز "الظاهرة القرآنية" نجد المفكر الجزائري الكبير، مالك ابن نبي رحمه الله، يرد على شبهات المستشرقين وانتقاداتهم للقرآن الكريم بطريقة مفحمة تظهر تهافتهم وأهدافهم المغرضة للنيل من القرآن الكريم وحاملي لوائه. وبالإضافة إلى هذا الرد وفي إطاره نجد مالك بن نبي يقترح منهجا آخر لتفسير القرآن الكريم وبيان إعجازه، وذلك قصد قطع الطريق نهائيا أمام شبهة المستشرقين القائلة ببشرية القرآن الكريم. وفيما يلي عرض واف لهاتين القضيتين:

أولا: رد مالك بن نبي على شبهات المستشرقين حول القرآن الكريم:

لقد ركّز الباحثون المستشرقون في كتاباتهم هجومهم على القرآن الكريم فطعنوا فيه بكلّ حقد وكراهية وقالوا فيه أقوالا باطلة لا تستند إلاّ إلى الهوى والضلال والتعصب، وذلك لإدراكهم أن القرآن الكريم هو المرجع الأصلي لمصادر التشريع الإسلامي وأدلته أو كما يقول الدكتور عجيل جاسم النشمي: "*والقرآن بمجموع ما ذكرنا يعتبر مهيمنا على بقية مصادر التشريع، بل إن هذه المصادر تستمد اعتبارها أدلة من اعتبار القرآن لها كذلك. ولا تكون كذلك إلا إذا*

* رئيس قسم العقائد والأديان و أستاذ الفكر الإسلامي المعاصر، كلية العلوم الإسلامية/جامعة الجزائر

كانت لها صلة بالقرآن الكريم بما قرره من أحكام وقواعد عامة... ومن هنا قرّر علماؤنا أنه ما من فعل إلا وله في القرآن حكم إما مباشرة أو غير مباشرة إما نصا أو استنباطا" [1]. وأول زعم زعموه وهجوم قاموا به يتمثل في دعواهم بأن القرآن الكريم ليس من عند الله، بل هو مأخوذ من كتب اليهود والنصارى، فيدّعون: "*إن النبي قد تعلم الكتب المقدسة اليهودية المسيحية تعلما مباشرا وشعوريا لكي يستخدم ذلك فيما بعد في بناء القرآن*" [2]. وقد فند مالك بن نبي هذه الدعوى -دعوى أن يكون النبي ﷺ قد نظر في كتبهم واستقى منها معلومات مباشرة- كما يلي:

1 – "*ونحن نذكر أنه لم يكن ولم يثبت أن كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني ليقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن*" [3]. وكل ما يمكن أن يذكر هو أن بعض الحنفاء كان لهم تأثير روحي معين على الوسط الذي تشكلت فيه الذات المحمدية، بل إن النبي نفسه كان حنيفيا قبل بعثته. والآيات التي تذكر جهله بالكتب تنطبق تماما على الحنفاء الآخرين، ومع ذلك فإن وجود الحنيفي نفسه كان حالة نادرة في بيئة مشركة في جوهرها.

2 – إن الإسلام أو القرآن ليس من صنع اليهودية والمسيحية إذ كان العرب، كما يلاحظ الأب لامانس، بعيدين عن الرعاية المناسبة للكنيسة، كما أنّه لو أنّ الفكرة اليهودية والمسيحية قد تغلغلت حقا في الثقافة والبيئة الجاهلية فإنّه من غير المفهوم ألاّ توجد ترجمة عربية للكتاب المقدّس.

- يوجد حدث مؤكّد فيما يتصل بالعهد الجديد "الإنجيل" وهو أنّه حتّى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية. فالغزالي (أبو حامد) صاحب الإحياء اضطر أن يلجأ إلى مخطوط قبطي كما يحرّر ردّه "الرد على من ادّعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل". كما ذكر الأب شدياق R.P. CHEDIAC أنّ أوّل نص مسيحي ترجم إلى العربية كان مخطوطا بمكتبة القديس بطرسبرج وكتب حوالي سنة 1060م بيد رجل يدعى ابن العسال. وهكذا إذا ثبت عدم وجود ترجمة عربية للإنجيل في عصر الغزالي فإنّه من باب أولى لم يكن يوجد مثل هذه الترجمة في العصر الجاهلي.

- أما فيما يخص العهد القديم أي "التوراة"، فإنّ القرآن الكريم الّذي يذكر لنا صدى ما دار من المجادلة بين النبي وبعض أحبار اليهود بالمدينة يقول مخاطبا هؤلاء: ﴿***فل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين***﴾ آل عمران 93. أفليس هذا دليلا على أنّه لم يكن يوجد ترجمة عربية للتوراة من جهة، و لم يكن يوجد من يقرأ العبرية من العرب من جهة أخرى؟
- إنّ انعدام وجود نسخ عن التوراة والإنجيل في البيئة العربية الجاهلية لدليل على انعدام المصادر اليهودية المسيحية المكتوبة فيها. إنّ المصادر العربية للتعليم، فيما يخص اليهودية والمسيحية، غير موجودة إطلاقا. أما من الناحية التاريخية فإذا كان هذا المصدر الأجنبي قد وجد لتعليم النبي ﷺ فإنّه لن يكون سوى مصدر شفهي غير مكتوب ليكون في متناول نبي

أمي، أي أنّه تلقى تعاليم يهودية ومسيحية بالاحتكاك والنقل الشفوي عن اليهود والنصارى في عصره.

إنّ النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وأجمع على هذا كل من تقابل مع الرسول الكريم، وكل من دوّنوا سيرته وتاريخه. فأمية الرسول ﷺ تمنعه من الإطلاع على الكتب المقدسة وقراءتها وكتابة ما فيها ونقله. ولذلك فإنّه من السذاجة بمكان أن يقرّر المستشرقون أن النبي كان يعمل بطريقة عالم فقيه يكشف عن كثير من الوثائق ويتأملها ثم يرتبها وينسقها كيما يستمد منها الرواية القرآنية [4]؛ أمّا فرض أن النبي ﷺ قد تلقى تعاليم شفوية مباشرة من اليهود والنصارى فإنّ استقلال الرواية القرآنية تمام الاستقلال عن الفكرة اليهودية المسيحية تنفي أن يكون الرسول ﷺ قد أخذ وتأثر بهما مباشرة وشفويا. على سبيل المثال بينما تنص الروايات المسيحية على فكرة صلب المسيح وترى فيها حقيقة تاريخية فإنّ القرآن الكريم يؤكد ما يخالف هذه الروايات فيقول الله ﷻ: ﴿***وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم***﴾ النساء 157. كما أنّه فيما يخص اتصال النبي ﷺ باليهود فإنّه "لم يحتك باليهود إلاّ في يثرب، وأنّه كان قبل ذلك في مكة يوحى إليه قرآن فيه بيان للنّاس. فمن أين جاء بهذا القرآن المكي إن لم يكن كله من وحي السماء ؟" [5].

3 – إنّ القرآن الكريم الّذي زعم المستشرقون المغرضون أنّه من بناء محمد ﷺ وتأليفه يختلف اختلافا كبيرا عن عبقرية الإنسان ويستقل عن ذات النبي ﷺ وذلك من وجوه عدة:

- القرآن يحتوي على علم يبدو أنّه ثمرة إعداد مسبق يعني العلم بالشيء مسبقا. مثلا النبي ﷺ كان يجهل تماما قصص الأقوام الأولين مثل قصة يوسف عليه السلام وغيرها كما يصرّح بذلك القرآن الكريم: ﴿***نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين***﴾ يوسف 3، بل إنّ جهله هذا كما يقول مالك بن نبي عنصر جوهري للاقتناع الشخصي للنبي بأنّ القرآن مستقل عن ذاته [6].

- لقد كان النبي ﷺ في مستهل دعوته يجهد ذاكرته وهو يعاني حالة التلقي لكي يثبت الآيات كما نزلت وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لآخر وهو يريد أن يحفظ كلامه فهو يكرره في نفسه. ولكن القرآن الكريم يأمره قائلا: ﴿***ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه***﴾ طه 114. فيصادر حريته في استخدام ذاكرته حيث تنحصر حركتها في هذا التكرار المنهي عنه. وبذلك فإنّ الآية الكريمة لا تتجاهل حرية اختيار النبي ﷺ وإرادته في تدريب ذاكرته فحسب بل تتجاهل القانون النفسي لوظيفة التذكر نفسها.

- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يدل على استقلاله عن ذات النبي ﷺ. فالقرآن الكريم يقدّم لنا دائما كثيرا من الغرائب التي تلجم الفكر الإنساني وتفحمه فيشعر أنّه أمام أسمى فكر في الوجود، فكر أسمى من مستوى الذات الإنسانية. وإذا بالعقل البشري وهو الّذي تَعوّد أن يفكّر فيما هو معلوم وفيما هو قابل للعلم مما يتصل بالمستوى الإنساني

يجد نفسه وقد حمل بعيدا ليلحظ في وميض آية من آيات القرآن الكريم أفقا من آفاق المعرفة المطلقة "فنحن مضطرون إلى أن نعتبر أمثال هذه الغرائب إشارات بينات وشهبا ثواقب تكشف للفكر الإنساني المبهور عن المصدر الغيبي الّذي تدفقت منه تلك الفكرة بحيث سبقت عصور التقدم الإنساني واتفقت مع الحقائق التي كشف عنها العلم بعد ذلك بقرون وكأنما سبقت هذه الغرائب العقل الإنساني الّذي يتطور لتكون طلائع شاهدة على السر الأسمى للمعرفة القرآنية.. "[7]، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿***أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها***﴾ الأنبياء 44، وانظر إلى قوله تعالى أيضا: ﴿***وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب***﴾ النمل 88، يصف القرآن الكريم بصراحة حركة الأرض في الآية الثانية والشكل البيضاوي للأرض في الآية الأولى، ولقد أثبت العلم الحديث حركة الأرض ودحو قطبيها أي شكلها البيضاوي بعد قرون من إثبات هذه الفكرة عن طريق الوحي المبرأ من الخطأ. فهل يمكن بعد هذا القول أنّ أفكارا علمية متطورة بهذا المستوى قد انبثقت من عقل نبي ثبتت أميته؟

- ودليل آخر على استقلال الفكرة القرآنية عن الذات المحمدية وأفكارها هو "إنّ المجاز القرآني ليس غالبا ولا دائما انعكاسا للحياة البدوية في الصحراء فهو يستمد على عكس ذلك عناصره وألفاظ تشبيهاته من بيئات وأجواء مشاهد جد مختلفة. فالأفكار المتصلة بالنبات كالشجرة وأنواع الرياض تصور لنا طبيعة أرض كثيفة الزرع طيبة الهواء أكثر

من أن تصور لنا طبيعة الصحراء القاحلة الرملية. والأنهار الّتي تخترق المروج الخضر تذكرنا بالأرض الخصبة على ضفاف النيل أو الفرات أو نهر الجانج LA GANGE بالهند أكثر ممّا تذكرنا بمغازات بلاد العرب"[8].

وما يريد أن يبينه مالك بن نبي هو أنّ آيات كثيرة من القرآن الكريم تصوّر لنا وسطا جغرافيا لا علاقة له بالوسط الجغرافي للقرآن الكريم لمحمد ﷺ، ولا علاقة له بالمستوى العقلي أو المعارف السائدة في البيئة الجاهلية. فالآية الكريمة: ﴿***أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور***﴾ النور 40. هذه الآية تتجاوز المعارف البحرية في العصر الجاهلي، ومعارفها منتزعة من بعض البلدان الشمالية الّتي بلغها الضباب ولا يمكن للإنسان أن يتصورها إلاّ في النواحي الكثيفة الضباب في الدنيا الجديدة أو في إيسلندا.. وحتى لو افترضنا أنّ النبي ﷺ رأى البحر في شبابه فلن يعدو الأمر شواطئ البحر الأحمر أو الأبيض.. وحتّى لو سلمنا بهذا الفرض فلسنا ندري كيف كان يمكن أن يرى الصورة المظلمة الّتي صورتها الآية الكريمة وزيادة على هذا فإنّ الآية الكريمة تتضمن معرفة علمية بالظواهر الخاصة ببقاع البحار، وهي معرفة لم تتح للبشرية إلاّ بعد دراسة ومعرفة جغرافيا المحيطات ودراسة البصريات الطبيعية. ولهذا فمن غير المعقول أن نعزو كتابة مثل هذه الآيات إلى نبي عاش في بيئة صحراوية وفي عصر ثقافي يجهل كلية

تراكب الأمواج وظاهرة امتصاص الضوء واختفائه على عمق معين في الماء.[9]

4 - وقضية أخرى تتعلق بهجوم المستشرقين على القرآن الكريم وهي قضية الشعر الجاهلي التي أثارها المستشرق مارجيليوت وتلميذه الوفي طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" وهي قضية خطيرة جدا ومفادها ما يلي: يقول طه حسين: "*.. وهي أنّ نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية. ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسرا، حتى أنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قُدّ على قدّ القرآن والحديث كما يُقدّ الثوب على قدّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا وسعة. إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظا من السذاجة لم يتح لنا مثله. إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازاة على الشك والحيرة، وعلى أن نسأل أنفسنا: أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة في الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة، وإنما هي شيء تكلّف وطلب وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي*"[10]. إن طه حسين أراد أن يؤكد بأن الشعر الجاهلي هو شعر اصطنعه المسلمون بعد الإسلام وليس شعرا جاهليا خالصا. إنه شعر تم انتحاله ووضعه بعد الإسلام قصد إثبات أن ألفاظ القرآن كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، إن الشعر الجاهلي شعر منحول وموضوع في نظر

طه حسين وهو "*لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا ديانتهم ولا حضاراتهم، بل لا يمثل لغتهم*" [11].

والحقيقة أن القول بوضع الشعر الجاهلي هو محاولة للقول بأن بيان القرآن الكريم ليس دليلا على أنه إلهي المصدر في نظر مالك بن نبي، إن كلا من المستشرق مارجيليوت وتلميذه طه حسين أرادا نسف "منهج التفسير القديم كله، ذلك المنهج القائم على المقارنة الأسلوبية معتمدا على الشعر الجاهلي كحقيقة لا تقبل الجدل" [12]، ولكن على الرغم من أن مالك بن نبي يرى في فرض مارجليوت وتلميذه أنه لا يستند إلى دليل منطقي معقول "وليس يغض من شأن هذه النتيجة ذلك الفرض الباطل الذي قال به المستشرق المشهور مرجليوت"، فإن الجدل حول هذه المسألة قد صفي وأغلق في مصر بما قام به الرافعي ومدرسته من دراسات، فلم يعد لفرض "العالم الإنجليزي مجال إلا في بعض الدراسات المغرضة. وفضلا عن ذلك فليس من الممكن أن نتصور كيف ولماذا اخترع بعض الناس نوعا أدبيا رصينا كالشعر الجاهلي ثم اختلقوا له أسماء شعرائه ومؤلفيه؟... إن هذا غير مفهوم" [13].

ثانيا: اقتراح مالك بن نبي لمنهج جديد في التفسير:

على الرغم من الرد المفحم والمنطقي على "مارجيليوت" وطه حسين"، فإن مالك بن نبي يشير إلى قضية هامة في التفسير تتمثل في ضرورة عدم الاقتصار على التفسير القديم الذي ينتهج المقارنة الأسلوبية في تفسير القرآن الكريم معتمدا على الشعر الجاهلي كحقيقة لا تقبل الجدل.

إن مالك بن نبي يدعو إلى إدخال تعديل على مناهج التفسير القديم، تعديلا يناسب في حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث.

ذلك أن الإعجاز القرآني ليس إعجازا بيانيا لغويا فقط. فمنذ وقت طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية، ليمكننا أن نستنبط من مقارنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة ومنذ وقت طويل أيضا تكتفي عقائدنا في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية. فمشكلة التفسير توضع إذن في ضوء جديد، وربما نظر إليها المصريون المحدثون في هذا الضوء الجديد كتفسير طنطاوي جوهري الذي يعد إنتاجا علميا أشبه بدائرة معارف، وتفسير رشيد رضا الذي اتبع فيه إمامه الشيخ محمد عبده فكان تفسيرا عقليا. ولكن كلا من طنطاوي جوهري ورشيد رضا لم يهتما بتحديد المنهج الذي يجب سلوكه في مشكلة الإعجاز. فرشيد رضا مثلا خلع على المنهج القديم في التفسير صبغة عقل جديد، ولكنه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلا جوهريا بل خلق فقط في الصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماما بالنقاش الديني.

وفي نظر مالك بن نبي فإنه على الرغم من هذه المحاولات فإن مشكلة التفسير تظل خطيرة بالنسبة لاعتقاد الفرد الذي شكلته مدرسة ديكارت من جهة، وبالنسبة لمجموع الأفكار الدارجة التي هي أساس الثقافة الشعبية من جهة أخرى. والمعضلة تكمن في وجود طبقتين في العالم الإسلامي اليوم: طبقة مثقفة مقتنعة بحركة الأرض، وجمهور عريض يعتقد بأن الأرض ساكنة تحملها العناية على قرن ثور. ولذلك يقول مالك بن نبي: "*إن مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية*

لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي. وبالتالي فإذا كانت هذه الأسباب التي قدمناها تدل على ضرورة هذا التعديل فهناك أسباب أخرى تدل على محتواه، أعني على صورة المنهج الذي يجب أن نسلكه في مشكلة الإعجاز" [14]، ومعنى هذا أن مالك بن نبي يريد أن يطرح منهجا جديدا في التفسير، منهجا معدلا للمنهج القديم في التفسير، منهجا يأخذ بعين الاعتبار المثقف ورجل الشارع. فما هو هذا المنهج المقترح؟

إن القرآن حسب مالك بن نبي قرآن معجز ولذلك يجب تحديد معنى الإعجاز لغة واصطلاحا وفي حدود التاريخ، أي في جوانب ثلاثة:

1 - فأهل اللغة يرون أن الإعجاز هو الإيقاع في العجز.

2 - وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها.

3 - أما تحديد هذا المصطلح في ضوء وفي حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لحجة الدّين، وإدراك المسلم لحجة الإسلام بخاصة، فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الأديان.

فالإعجاز هو: [15]

- بالنسبة إلى شخص الرسول الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها.

- وهو بالنسبة إلى الدين وسيلة من وسائل تبليغه وهذان المعنيان للإعجاز يضفيان على مفهومه صفات معينة:

أولا : إن الإعجاز كحجة لا بد أن يكون في مستوى إدراك الجميع وإلا فاتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، فهو ينكرها عن حسن نية أحيانا.

ثانيا : ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين، أن يكون الإعجاز فوق طاقة الجميع.

ثالثا : ومن حيث الزمن، أن يكون تأثير الإعجاز بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه. وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين، الصلة التي تختلف من دين إلى آخر باختلاف ضرورات التبليغ.[16]

فهذا هو المقياس العام الذي يراه مالك بن نبي ينطبق على معنى الإعجاز في كل الظروف المحتملة بالنسبة إلى الأديان المترلة. ففي نطاق رسالة موسى عليه السلام مثلا، نرى أن الله اختار لهذا الرسول معجزتين، اليد والعصا، كحجة يدعم الله بهما نبيه؛ وهاته الحجة المعجزة كانت:

- في مستوى السحر الذي يقع أثره في إدراك الجميع عن طريق المعاينة الحسية دون إجهاد فكر.
- فوق طاقة ومستوى العلم الفرعوني الذي كان من اختصاص أشخاص معدودين يكونون هيئة الكهون.
- في زمن محدد حتى أن القوم الذين يدينون اليوم بدين موسى، أي اليهود، يفقدون نزعة التبليغ بحيث لا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلى غيرهم من الأمم مما يؤدي إلى القول بأن الإعجاز الموسوي قد ألغاه في هذا الدين عدم الحاجة إليه.

أما في نطاق رسالة عيسى عليه السلام فقد اختار الله له نوعا جديدا من الإعجاز ينسخ إعجاز موسى عليه السلام وتزول بذلك حجته بزوال ضرورتها التاريخية. لقد أتى عيسى عليه السلام بالدّين الجديد وبما يتطلبه هذا الدّين من وسائل لتبليغه أي ما يتطلبه من حجة. فأتى بإعجازه الخاص المتمثل في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله. وهاته الحجة المعجزة كانت كسابقتها:

- في مستوى إدراك الإنسان وعقله.
- فوق طاقة العقل البشري.
- في زمن محدد، إذ أن دلالة ما أوتي عيسى من إعجاز ستزول بمجيء رسول جديد ودين جديد ينسخان الدين السابق وإعجازه.[17]

أما في نطاق رسالة محمد ﷺ فقد اختار الله له نوعا جديدا من الإعجاز يتماشى والبيئة التي بعث فيها أولا ويتماشى وخصائص رسالة الرسول الكريم الأمين التي هي آخر الرسالات؛ فلا رسالة بعدها. وخصائص النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء فلا نبي بعده بمعنى أن إعجاز الرسالة المحمدية سيستمر، على عكس إعجاز موسى وعيسى، وحاجة التبليغ ستبقى مستمرة فيه وذلك لأن الدين الإسلامي الجديد هو دين آخر الزمن لا دين سماوي بعده. وعلى هذا فإن حاجة الإسلام إلى وسائل تبليغه تبقى قائمة وملازمة له من جيل إلى جيل ومن جنس إلى جنس، لا يلغيها شيء في التاريخ، بمعنى أن هذه الوسائل ليست، كما هو الحال في الأديان الأخرى، مجرد توابع يتركها الدّين في الطريق عبر التاريخ بعد

مرحلة التبليغ، مثل اليد عند موسى أو عصاه التي لم يبق لها أثر حتى في متاحف العالم، كما بقيت عصا توت عنخ آمون الذهبية.[18]

وما يريد أن يؤكده مالك بن نبي بالنسبة لرسالة الإسلام هو أن إعجاز القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال. ومن هنا فإن الإعجاز القرآني مستمر وسيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك فإن هذا الإعجاز المستمر يقتضي ما يلي:

أنه إذا كان الإعجاز القرآني إعجازا بيانيا لغويا بصفة خاصة في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده، إعجازا بيانيا في مستوى فهم العرب وإدراكهم أولا وفوق طاقتهم بحيث لا يمكنهم الإتيان بمثله ثانيا، فإن هذا الإعجاز اللغوي البياني محدد بزمن العرب وفطرتهم اللغوية، وبإمكانيات عالم اللغة في العصر العباسي. أما الأزمان والعصور التي أعقبتها والمستقبلية فإنها بحاجة إلى نوع آخر من الإعجاز، إعجاز قرآني آخر كامن ومتضمن في القرآن نفسه، مثل الإعجاز العقلي والعلمي والطبي في القرآن الكريم وغيرهم.

إذن الإعجاز في القرآن الكريم لا يمكن حصره في الإعجاز البياني بل يمكن توسيعه إلى أنواع أخرى من الإعجاز تكون في كل جيل لاحق متماشية مع مستوى فهم هذا الجيل وإدراكه، ومتعالية عليه أي فوق طاقته ومتماشية مع زمنه ومناخه العقلي.

وقصد توضيح ما يذهب إليه مالك بن نبي نقتبس منه قوله: ... *ولكن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي وإمكانيات عالم اللغة في العصر العباسي، وبرغم هذا فإن القرآن لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنه ليس*

من توابعه، بل من جوهره، وإنما أصبح المسلم مضطرا إلى أن يتناوله في صورة أخرى بوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من حيث تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة".[19]

إن عصرنا في نظر مالك بن نبي يفقد الجانب الأدبي للرسالة، ذلك الذي كان في نظر المفسرين التقليديين موضوع الدراسة الأول، لأن عصرنا يهتم بالعلم أكثر مما يهتم بالأدب. وسيطرتنا القاصرة على عبقرية اللغة الجاهلية تمنعنا من الحكم على سمو الأسلوب في القرآن، ولذلك فلا بد لنا من وسائل أخرى لإصدار حكم في هذا الجانب الخاص من المسألة.

إن القرآن معجزة مستمرة وعلامات صدقه لا تنحصر في عبارته فحسب بل في عالمي الطبيعة والنفس أيضا كما يقول القرآن الكريم نفسه: ﴿***سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق***﴾ فصلت 53.

وتجدر الإشارة إلى أني أميل إلى رأي الأستاذ محمود شاكر في مقدمته لكتاب مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية" الذي يرى أن مالك بن نبي خلط بين الإعجاز والتفسير وظن أن كلا من مرجيليوت وطه حسين أرادا من فرضهما القائل بأن الشعر الجاهلي منحول وموضوع نسف المنهج القديم في التفسير القائم على البيان والأسلوب الشعري الجاهلي.[20]

إن الأستاذ محمود شاكر يذهب إلى أن طه حسين ومرجيلوت وغيرهما قصدوا بهذا الفرض، أي انتحال الشعر الجاهلي، القول ببشرية القرآن الكريم لأن نفي الشعر الجاهلي ونفي وجوده هو نفي لحقيقة وهي أن القرآن الكريم قد تحدى شيئا لم يوجد و لم يكن موجودا. إنه نفي لشعر

جاهلي هو قمة في البيان والفصاحة والبلاغة والنظم يقترب من بيان القرآن وفصاحته وبلاغته ونظمه ولكنه لا يضاهيه بل يعترف بأنه لا يمكنه أن يتحداه فيأتي بمثله أو بما هو أحسن منه بيانا، ويدرك أنه أمام بيان لا يمكن لأي بشري أن يأتي بآية من مثله.

لقد أدرك العرب وهم أهل البيان وعبدته، أنهم أمام بيان قرآني لا قبل لهم به ولا يمكنهم أن يتحدوه أبدا، بيان قرآني في مستوى فهمهم وإدراكهم ولكنه فوق مستوى طاقتهم وطاقة بيانهم فأحجموا عن تحديه وأدركوا أنه ليس من كلام البشر وإنما هو من خالق البشر.

وهكذا فإن محاولة نفي وجود الشعر الجاهلي هي محاولة لنفي الإعجاز البياني للقرآن ومن ثمة محاولة للقول ببشرية القرآن الكريم أي أنه من صنع محمد ﷺ.. محمد، في زعمهم، الذي صنع القرآن متحديا ثم صنع الشعر الجاهلي ليكون موضوع التحدي، فيفشل الشعر الجاهلي المنحول في التحدي ويظهر إعجاز القرآن ويبقى متحديا للدلالة على أنه إلهي المصدر وليس بشريا.

ويبقى أن مالك بن نبي حتى ولو أخطأ فهم قصد طه حسين ومرجليوت في فرضهما فإنه في نظري أصاب حين أراد أن يضيف إلى الإعجاز البياني والتفسير اللغوي أنواعا أخرى من الإعجاز ومناهج التفسير خاصة بالعصور والأجيال التي أتت بعد ذلك وخاصة بعصرنا، لأنه إذا كان الشعر الجاهلي هو الوحيد المؤهل لتحدي القرآن الكريم لعلُوّ كعبه في علم البيان ثم لم يجرؤ حتى على التحدي، "وهذا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن المعجز ليس من

صنع البشر ولا من صنع الجن بل هو وحي من الله عز وجل"، فإن هناك أشياء أخرى في القرآن نفسه تدل على استمرار الإعجاز فيه في عصرنا هذا الذي قصر فيه فكرنا عن البيان وتخلى عنه إلى العلم. إنه الإعجاز العلمي الذي يدل دلالة واضحة أنه لا يمكن لأي بشر كمحمد ﷺ النبي الأميّ أن يصدر منه علم معجز لم تتوصل إليه البشرية إلا في عصرنا وبوسائل متطورة جدا.

ويبقى هذا الإعجاز البياني قائما مستمرا يضاف إليه أنواع من الإعجاز مثل الإعجاز العلمي والطبي وغيرهما. وهذه الأنواع من الإعجاز القرآني تتماشى والمناخ العقلي لإنسان العصر الحديث. وبإمكان المفسرين المسلمين اليوم إحداث مناهج جديدة في التفسير، إلى جانب التفسير البياني، مثل منهج التفسير العقلي ومنهج التفسير العلمي، والتفسير الموضوعي.

وهكذا تبين أن مالك بن نبي كان يود في الحقيقة بإثباته للقرآن الكريم أن يثبت أن الظاهرة القرآنية هي ظاهرة موضوعية وأن مصدر القرآن هو الله ﷻ وليس محمد ﷺ أو أي بشري كان، وهو بهذا يكون قد قضى على شبهات المستشرقين القائلين ببشرية القرآن أو الظاهرة القرآنية، هذه الظاهرة التي تعتبر مرجع المراجع بالنسبة للتشريع الإسلامي، كما قدم اقتراحا متميزا فيما يتعلق بضرورة استعمال المفسرين لأنواع جديدة من الإعجاز القرآني إلى جانب الإعجاز البياني قصد دحض شبهة المستشرقين بأن القرآن بشري المصدر.

الهوامش :

1 عجيل جاسم النشمي، المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، ط 1 الكويت المطبعة العصرية 1984، ص 73.

2 مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق دار الفكر 1981، ص 244.

3 نفس المصدر، ص 246.

4 نفس المصدر، ص 254.

5 محاضرة مطبوعة للأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب ألقاها بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، الجزائر بعنوان: "المستشرقون والقرآن الكريم "، ص 10.

6 مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 259.

7 نفس المصدر، ص 270.

8 نفس المصدر، ص 280.

9 مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، ص 281.

10 طه حسين، في الأدب الجاهلي، ط 10 القاهرة دار المعارف بمصر 1969، ص 120.

11 نفس المرجع، ص111.

12 مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مصدر سابق، 57.

13 نفس المصدر، ص 185.

14 نفس المصدر، 59.

15 نفس المصدر، ص 64.

16 نفس المصدر، ص 64.

17نفس المصدر، ص 64ـ65.

18 نفس المصدر، ص 66.

19نفس المصدر، ص67.

20 مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية (مقدمة الأستاذ محمود شاكر) مصدر سابق، ص3ـ34.